النجف... رهينة حرب الكلمات بين الصدر والاحتلال

21-8-2004

وهناك إجماع غربي على أن أزمة النجف الأخيرة هي نتاج سلسلة من الفشل الأمريكي السياسي والعسكري تراكم خلال الشهور، وإن الخاسر الأكبر سيكون رئيس الوزراء العراقي ومؤيديه الأمريكيين حتى لو انتهت أزمة النجف إلى نصر عسكري أمريكي، فالخسارة السياسية ستكون أشد وقعا وتأثيرا. ولكن سيكون هناك خاسرون كثيرون، ففي حين، يدرك علاوي جيدا أن مصداقيته الهشة بالأساس تتآكل يوما بعد يوم، كلما استمرت أزمة النجف، لكنه لا يعرف ماذا عساه أن يفعل حيال الصدر غير إطلاق التصريح تلو الأخرى، ولكن الصدر أيضا ليس بمنأى عن ذات الأزمة التي يعاني منها علاوي وإن لم تكن بالدرجة الأولى أزمة شرعية، فالصدر سواء أتفق معه البعض أم اختلفوا يمتلك شرعية بحكم كونه الشخصية الشيعية العراقية الوحيدة التي تستند علي أساس ديني والتي تجاهر بعدائها للاحتلال وتقاومه وإن بشكل خطابي أكثر من كونها حركة منظمة وجيدة التسليح والإعداد لمواجهة آلة عسكرية شرسة، ولا جدال في أنه استمد شرعيته من هذا الأمر بالدرجة الأولى بالإضافة لرصيد عائلته، ولكن السؤال الذي يطرحه بعض الصحفيين الغربيين هو هل إن الصدر قد فقد السيطرة على الوضع بمثل ما فقدها علاوي؟ ويدللون على ذلك بالتناقض الشديد الذي تضمنته الرسائل الصادرة من معسكره، وبأنه بعد مرور عام يبدو أنه أصبح لا يعرف ماذا يريد. العنوان العريض لتياره هو مقاومة الاحتلال، ولكن هناك أيضا صراع على الزعامة الشيعية، وقد استطاع أن يقتن

بقلم [أميمة عبداللطيف]

مواد ذات علاقة

النجف: ما بين انتفاضة نيسان وتموز ...المقاومة الصدرية لا تراوح مكانها

تسلمت المرجعية مفاتيح الصحن الحيدري..لم تتسلم المرجعية المفاتيح..قوات الشرطة العراقية تسيطر على مرقد الإمام علي رضي الله عنه وأحكمت السيطرة..ليس هناك وجود للشرطة العراقية.. مقتدى الصدر اتخذ الليل جملا -كما طالب مؤيديه في رسالة خطية مقتبسا مقولة الإمام الحسين- وولى الأدبار من النجف إلى جهة غير معلومة..مقتدى الصدر مازال محتميا بالصحن ملاذ الخائفين ولن يخرج منه إلا شهيدا.

هكذا كانت الصورة خلال الأيام الأربعة الأخيرة عن الأوضاع داخل مدينة النجف، وهي كما يبدو حبيسة التخبط والاضطراب حتى بات من شبه المستحيل التيقن من حقيقة ما يحدث في المدينة التي ضرب حولها الحصار لأسبوعين الآن، وجعل العراق برمته رهينة معركة ستقرر نتائجها حتما مصير عدة أطراف في اللعبة العراقية. لعبة الدعاية السوداء وحرب التصريحات تلك مارسها الصدر وحكومة رئيس الوزراء العراقي إياد علاوي بامتياز خلال الأيام الماضية وأفضت إلى تخبط وتضارب بين العراقيين بل وعموم المسلمين، حتى تصريحات رئيس الوزراء العراقي إياد علاوي لم تقل تخبطا عن تصريحات مساعدي الصدر، فتارة هو يتبنى لهجة متشددة ويطالب الصدر التسليم والقبول بشروطه وتارة هو يقول بأن "غصن الزيتون مازال ممتدا". ثم كانت هناك التصريحات النارية التي أطلقها وزراء علاوي بشكل يكاد يكون كاريكاتوريا، حيث أطلقوا التهديد والوعيد وهم يعلمون سلفا أنهم يهددون بقوة عسكرية لا يملكون أي سيطرة عليها ولا يملكون قرارا لبدئها أو لنهايتها. فالقوة والنيران التي سوف يحاربون بها الصدر ليست قوة الجيش أو الشرطة العراقية، وإنما هم يحتمون بقوات احتلال ما كان لها أن تقوم بهكذا هجمات إلا لتمام إدراكها بأن ثمة غطاء شرعيا تمنحه لها حكومة علاوي..

ففي انتفاضة إبريل الماضي لم تبلغ المعارك الحد الذي وصلت إليه هذه المرة وذلك لعلم القيادة العسكرية الأمريكية بأن اللوم

سينصب عليها لكونها تنتهك حرمة مكان يعتبر من الأماكن ذات القداسة، أما الآن وبينما هي تتدثر بعباءة حكومة رئيس الوزراء علاوي يحق لها فعل ما تشاء. ولو يعلم العراقيون بتفاصيل محادثة دارت بين أحد القادة العسكريين الأمريكيين في المدينة ومراسل جريدة "كريستيان ساينس مونيتور" بالأمس، حينما اتصل الأخير به ليؤمن له طريقا للوصول للصحن الحيدري، فكان رد القائد الأمريكي: "ما تفعله ينطوي علي مخاطرة كبيرة لأن هذا الصحن قد لا يظل قائما لفترة طويلة بعد الآن"، كناية عن أن الهجوم على وشك الوقوع ولن يستثني منه المقام، فأي استهانة بأماكن المسلمين "المقدسة" تلك وأي استخفاف بمشاعرهم الدينية؟

ولكن ثمة وجهة نظر ترد على ذلك بالقول بأنه ليس أمام حكومة علاوي من مفر، لأن الصدر وضعها أمام اختبار قاس ولم يترك لها خيارات، وأنه إذا كان لها أن تُثبت أنها من يحكم العراق الآن، فعليها القضاء علي أي وجود "ميليشياوي" من شأنه أن يهدد احتكارها لاستخدام القوة، شأنها في ذلك شأن كل الحكومات "ذات السيادة". ووفق هذا المبدأ يعتبر موفق الربيعي مستشار الأمن القومي العراقي بأنه "لا يمكن إقامة ديمقراطية في العراق إذا تركت الميليشيات تعيث في البلاد فسادا"، وكان قد صدر قانون ينص على نزع السلاح عن كل الميليشيات الموجودة بالعراق واستثنى القانون البشمرجة الكردية نظرا "لتاريخها النضالي ضد النظام السابق". وفق قوانين سيادة الدولة القومية، فإن الدولة بالفعل هي الفاعل الوحيد المنوط به "احتكار الاستخدام المشروع للعنف أو القوة" "a monopoly on the legitimate exercise of violence"

ولكن هذا القول قد يصدق على الدول التي تتمتع بسيادة فعلية والتي تستخدم جيشها وقواتها الوطنية ولا ينطبق علي العراق بأي حال من الأحوال. فالعراق رغم كل المحاولات الدعائية الأمريكية التي تريد أن تقدمه باعتباره قصة نجاح أمريكية بحتة مازال مكبلا باحتلال مرير ومازالت أقدام مالا يقل عن 150 ألف جندي أمريكي تصول وتجول بلا رقيب وطني، وتغير مسمي هذه القوات إلي متعددة الجنسيات لا يغير من الأمر شيئا علي الإطلاق ورجوعها خطوة للوراء بعد "تسليم السيادة" لصف أمامي عراقي لا يعني أنها اختفت من الصورة أو أنها باتت تحت إمرة حكومة السيادة كما تصورها كذلك بعض وسائل الإعلام الأمريكية الموالية لإدارة الرئيس بوش. بعضا من الدلائل تسوقها يومية "نيويورك تايمز" في افتتاحيتها اليوم، حيث ترجع السبب الحقيقي لبدء مواجهات النجف إلي سلسلة من الأخطاء الفادحة التي وقعت فيها قوات الاحتلال الأمريكي نتيجة لنقص الاتصال فيما بين المستويات المختلفة للقيادة العسكرية الأمريكية. فقد بدأت الصدامات تحتدم مع جيش المهدي بعد وصول وحدة مارينز جديدة إلي المدينة والتي دخلت في مناوشات ضد جيش المهدي حتي بدون الحصول علي موافقة القيادة العسكرية في بغداد ولا حتى استشارت القيادة السياسية العراقية التي تدعي بأن "القوات المتعددة الجنسيات تأتمر بأمرها".

وثمة إجماع غربي على أن أزمة النجف الأخيرة هي نتاج سلسلة من الفشل الأمريكي السياسي والعسكري تراكم خلال الشهور الماضية على حد تعبير مراسل "الديلي تلجراف" البريطانية والذي اعتبر بأن الخاسر الأكبر سيكون رئيس الوزراء العراقي ومؤيديه الأمريكيين حتى لو انتهت أزمة النجف إلى نصر عسكري أمريكي، فالخسارة السياسية ستكون أشد وقعا وتأثيرا. ولكن سيكون هناك خاسرون كثيرون، ففي حين، يدرك علاوي جيدا أن مصداقيته الهشة بالأساس تتآكل يوما بعد يوم، كلما استمرت أزمة النجف، لكنه لا يعرف ماذا عساه أن يفعل حيال الصدر غير إطلاق التصريح تلو الأخرى، ولكن الصدر أيضا ليس بمنأى عن ذات الأزمة التي يعاني منها علاوي وإن لم تكن بالدرجة الأولى أزمة شرعية، فالصدر سواء أتفق معه البعض أم اختلفوا يمتلك شرعية بحكم كونه الشخصية الشيعية العراقية الوحيدة التي تستند علي أساس ديني والتي تجاهر بعدائها للاحتلال وتقاومه وإن بشكل خطابي أكثر من كونها حركة منظمة وجيدة التسليح والإعداد لمواجهة آلة عسكرية شرسة، ولا جدال في أنه استمد شرعيته من هذا الأمر بالدرجة الأولى بالإضافة لرصيد عائلته، ولكن السؤال الذي يطرحه بعض الصحفيين الغربيين هو هل إن الصدر قد فقد السيطرة على الوضع بمثل ما فقدها علاوي؟ ويدللون على ذلك بالتناقض الشديد الذي تضمنته الرسائل الصادرة من معسكره، وبأنه بعد مرور عام يبدو أنه أصبح لا يعرف ماذا يريد. العنوان العريض لتياره هو مقاومة الاحتلال، ولكن هناك أيضا صراع على الزعامة الشيعية، وقد استطاع أن يقتنص لنفسه شعبية بين قطاع ليس بالهين بين العراقيين. غير أن السؤال يظل قائما إلى أي مدى يتحكم هو فعليا بما يحدث على الأرض يوميا من معطيات ووقائع؟ إلى أي مدى يدير الصدر المعارك والمقاومة؟ أم هل يتوارى تاركا مساعديه يتولون الأمر نيابة عنه ليظل هو "القائد الملهم"؟ وإلى أي مدى أيضا ينقل إليه مساعدوه الصورة الحقيقية لوقائع الأحداث؟ وماهو دور مستشاريه في صياغة رؤيته السياسية؟ ومن هم مستشاروه؟ ثم لماذا كلما يتم تضييق الخناق عليه يعلن الصدر أنه يضع نفسه "تحت إمرة المرجعية"؟ كم مرة كرر الصدر هذه العبارة؟ وماذا كان يعني بها إذا كان يعلم تمام العلم أن المرجعية لن تبارك ما يفعله، فما قيمة ما يقول إلا إذا كان يغازل المرجعية من دون أن يترجم قوله لفعل حقيقي؟.

التخبط في الأقوال والأفعال في الأيام الماضية قد أدت بالعراقيين لأن يستعيدوا أجواء ليست بالبعيدة فكل من علاوي والصدر يقدمون تصريحات متضاربة تقترب من الأكاذيب لكون قائليها لا يعنون بها شيئا سوي تحقيق نصر إعلامي علي الطرف الأخر. ألم يكن صدام حسين يفعل ذلك أيضا؟